سحر الشرق بفرشاة الغرب

هند عبد العزيز

فُتن المسافرون الأوروبيون، وخاصة في القرن التاسع عشر، بالأضواء والألوان وطريقة الحياة المختلفة، وقد ألهمت البيئة الجديدة الفنانين والكُتّاب والمصورين وتركت إلى حد بعيد آثارها على تاريخ الفن الأوروبي. كان ينظر إلى الشرق على أنه أرض غريبة ومن ذلك الحلم ظهر ما بات يعرف بالاستشراق الذي أدى الانبهار به ليس فقط إلى جعل هذه الإبداعات مجرد انعكاسات (للشرق) والتي تعرف اختصاراً بـ (الاستشراق) وإنما أصبحت الأنماط والمواضيع مصدر إلهام للفنانين في إبداعاتهم الخاصة.

ظاهرة (الاستشراق) في الفن التشكيلي، تعدّ من أكثر الظواهر الثقافية والتاريخية والسياسية، مدعاة للتأمل والدراسة والبحث، إذ تعتبر ظاهرة قديمة جديدة لم تنته (جدليتها) بعد، لأنها تمسّ حضارتين إلى درجة الصدام هما الحضارة الشرقية والغربية.

وقد أعاد الاستشراق في الفن التشكيلي طرح نفسه بقوة، من خلال تسليط الأضواء على الشخصية الشرقية وملامح الحضارة التي كانت مجسدة في الحياة اليومية والسلوكيات.

كانت معظم المواد التصويرية الأولى حتى القرن الثامن عشر رسوماً من الخيال، اعتمدت على نصوص العلماء الرحالة الذين زاروا الشرق بفانطازيا، ساعدت في أن يساهم الاستشراق في توثيق هوية جمالية في الفن مختلفة عن المألوف والواقع بدت تجلياتها في وحدة (الفكر الجمالي) في الفنون الإسلامية، وخصوصيته، وإبداعاته، تؤطر لثلاثية الإبداع الجمالي والأخلاقي والنفعي، كما لم تقتصر إبداعات الفنان ذو النزعة الشرقية على البصري الجمالي، بل غاص في الدلالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، التي تقف خلف الإبداع الفني التشكيلي، مما أدى إلى التعريف بثقافة عريقة كانت في المفهوم الغربي في ذلك الحين ثقافة همجية، كما عكس بعض مظاهر التلاقح الفني وبروز جمالياته في صلب الحضارة الأوربية في عصر التنوير مما ساهم في إثرائها وتطورها شملت موضوعات النزعة الاستشراقية الفنية تسجيل غالب مظاهر الحياة في الشرق.. من حياة السلاطين والأمراء والحكام، والحروب، ومعالم البيئة، والطبيعة، ورسوم الآثار، ونقوشها إلى مظاهر الحياة اليومية والأعياد والعادات والتقاليد وأسواق العبيد، ومشاهد الطرب فضلاً عن الانبهار بعمارة المساجد والأسبلة والبيوت، والسجاد، والبسط، والأزياء الشعبية وكان لإبراز مظاهر الحياة الواقعية بعيداً عن تلك المتخيلة،

لوحة (القدس) للرسام الألماني غوستاف بيرنفيند

مع محاولة إضفاء الطابع الإنساني على الواقع الخارجي، والبحث عن مكامن الجمال أثراً كبيراً في تميز تلك اللوحات بالدقة والثراء والوضوح والتجديد، كما شكلت تلك الموضوعات الإبداعية سجلاً وثائقياً فنيا، وإطلالات على قراءة تاريخنا وواقعنا الشرقي بشكل بصري.

واهتم المستشرقون كثيراً بفنون العمارة المدن العربية الإسلامية القدس ودمشق والقاهرة وبيروت والمغرب العربي وكثّفوا محاولاتهم في نقل جمالياتها وخصائصها المتميزة، والفريدة في أعمالهم بإبراز الأنماط المعمارية الإسلامية من الأرابيسك والنقش والزخرفة الهندسية والألوان المزركشة في الفنون التطبيقية، وكان التواصل في فن العمارة والنحت في عهد (بونابرت) بادياً في تزيين بعض الحدائق والجسور بالمسلات الجرانيتية، واستخدام فن الأرابيسك لتزيين جدران القصور تزيين رؤوس الأعمدة بأشكال زهرة اللوتس والنخيل أو شكل الأهرامات، واقتناء الأواني الخشبية والنحاسية والسجاد الإسلامي، وزراعة الحدائق بالزهور والنباتات المنقولة من البيوت المغلقة لاكتشافه وكشفه.

وكان اهتمام الفنانين الأوروبيين بالشرق جاء مع تعاظم النفوذ الاستعماري الغربي في العالم العربي والإسلامي حتى أنّ بعض الفنانين كانوا يرافقون الوفود العسكرية والدبلوماسية الأوروبية التي كانت تزور الشرق.

بدأ الاهتمام بالفنّ الاستشراقي مع حملة نابليون على مصر في العام 1798 حتى عام 1801. وجاء ازدهاره الحقيقي بعد 40 عاماً من ذلك التاريخ. والفضل يعود إلى انتشار خطوط السكك الحديد وتخفيف القيود المفروضة على السفر والتجارة.

بعض الفنّانين الاستشراقيين كانوا يرسمون أعمالهم في عين المكان. لكن مع ازدياد شعبية هذا النوع من الرسم، استطاع آخرون رسم لوحات استشراقية دون أن يغادروا أوطانهم. كانوا ببساطة يستخدمون الكتب المرجعية ويستعينون بنساء من بيئاتهم المحلية يلبسونهنّ ثيابا واكسسوارات مستوردة من بلدان الشرق.

و حرص الفنان الاستشراقي على نقل تفاصيل المشهد الذي عاينه، مع أنه كان يكمله بعد عودته لأن الفنانين البريطانيين والفرنسيين لم يكونوا معتادين علي الرسم في الهواء الطلق، بل على هدوء مراسمهم.

وكانت حملة نابليون بونابرت على مصر من العوامل الأساسية التي ساهمت في اكتشاف الغربيين للحضارات التي تعاقبت على أرض مصر. لقد اصطحب معه بونابرت عدداً كبيراً من العلماء والمهندسين والرسامين الذين قاموا برسم الصروح المعمارية بأدقّ تفاصيلها فجاء نتاجهم تجسيداً لعمل توثيقي كامل قبل اختراع آلة التصوير الفوتوغرافي. ويسلّط المعرض الضوء على أبرز نتاجات البعثة العلمية التي رافقت بونابرت لأنها هي التي أسّست لحركة الاستشراق في الفنون

الأوروبية. كما يتوقّف عند نتاج أبرز الفنانين المستشرقين وفي مقدّمهم الفنان الفرنسي أوجين دولاكروا الذي يعدّ من كبار فناني القرن التاسع عشر وأبرز ممثّل للتيار الرومنطيقي في الفن.

زار أوجين دولاكروا المغرب عام 1832 وكان مرافقاً للبعثة الدبلوماسية الفرنسية التي أرسلها الملك لوي فيليب للقاء السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن. أمضى الفنان ستة أشهر في المغرب أنجز خلالها مئات الرسوم التخطيطية. وكانت هذه الرسوم هي النواة التي اعتمد عليها دولاكروا لإنجاز لوحاته الجدارية الضخمة التي تطالعنا اليوم في متحف (اللوفر) في باريس. وقد عبّر الفنان في كتاباته التي رافقت الرسوم عن انبهاره بكل ما شاهده، فكتب عن أهل المغرب قائلاً: «إنهم على صلة وطيدة بالطبيعة، وإنّ الجمال يرافقهم في كلّ ما يفعلونه في حياتهم اليومية».

ويتّفق الكثير من مؤرّخي الفنون على أنّ رحلة دولاكروا إلى المغرب شكّلت تحولاً أساسياً في مسيرته الفنية وفتحت تجربته على آفاق جديدة. في (رسومه المغربية) ألغى الحدود الفاصلة بين اللون والخطّ ومهّد بذلك للمدرسة الانطباعية في الفن.

ومن أعمال دولاكروا إلى أعمال الفنان جان لوي جيروم الذي كان من أبرز ممثّلي التيار الأكاديمي المحافظ في الفن. لقد استهواه الشرق فزار مصر وفلسطين والجزائر وتركيا. كان ينجز رسومه التخطيطية أثناء السفر، وفي محترفه الباريسي كان يعمل على إعداد لوحاته الاستشراقية الزيتية الكبيرة والتي اتسمت برؤية قائمة على الصور النمطية والمبتذلة أحياناً. لكنه، من جانب آخر، كان بارعاً في تصوير الصروح المعمارية، وركّز على المشاهد التي استهوت العين الغربية في تلك المرحلة، ومنها مشهد النساء في سوق الجواري والفرسان على أحصنتهم.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، أصبحت الصور الأكاديمية تتمتّع بشعبية جارفة لدى الناس، تماماً مثل الأفلام السينمائية هذه الأيام. ومع ازدياد شعبيّتها تطوّرت واقعيّتها الفوتوغرافية وأصبحت مثالية وذات صيغ متكرّرة ومبتذلة أحيانا.

بحلول العام 1910 كان الاستشراق قد اختفى فعلياً من المشهد الثقافي الغربي، ليس بسبب موضوعه وإنما بسبب أسلوبه. لكن في منتصف سبعينيات القرن العشرين، وهنا تكمن المفارقة، عاد الفنّ الاستشراقي إلى الواجهة متزامناً مع نشر كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد عام (1978). في ذلك الوقت ازدادت أعداد مشتري اللوحات الاستشراقية من مواطني الشرق الأوسط. وبين 1972 وأواخر الثمانينيات، ارتفعت الأسعار من 3000 دولار إلى نصف مليون دولار للوحة ذات النوعية العالية.

والسبب الأكثر شيوعاً لهذه الظاهرة هو ارتفاع أسعار النفط في حقبة السبعينيات الميلادية.

فريدريك ليتون لويس

أوجين دولاكروا

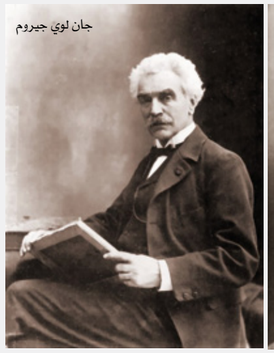

جان لوي جيروم

لوحة الصلاة للرسام لودفيغ دويتش

لوحة للرسام الفرنسي جان ليو جيروم

لوحة بريشة الرسام أدوين لورد

وقد بدأت حمّى شراء اللوحات الاستشراقية في أماكن معيّنة مثل شمال أفريقيا وتركيا. وكان من بين المشترين أعداد من مواطني الشرق الأوسط المقيمين في أوروبا.

وبحلول الثمانينيات انضمّ مواطنون من الخليج العربي إلى قائمة الراغبين في شراء الفن الاستشراقي، رغم حقيقة أن للإسلام موقفاً معروفاً من قضيّة تصوير أو رسم البشر.

لكن لماذا يختار جامعو الأعمال الفنية من العرب اقتناء مثل هذا النوع من الفنّ الذي يفترض أنه يحطّ من شأن العرب ويسيء إلى الثقافة العربية كما يقال أحياناً؟

الواقع أن هناك أعمالاً استشراقية محايدة بل وذات قيمة فنّية عالية مثل تلك اللوحات التي رسمها ديفيد روبرتس لطبوغرافية بعض أراضي الشرق الأوسط.

وحتى تلك اللوحات التي تصوّر بشراً لا تخلو أحياناً من تفاصيل معمارية وجغرافية مهمّة.

ويبدو أن بعض هواة جمع مثل هذه اللوحات من العرب يساورهم شعور بأهمّية إبراز (الماضي المجيد) وما كان يحفل به من أحداث أو أنماط حياة وسلوك.

مفهوم رسم الحياة اليومية لم يصل إلى الشرق الأوسط إلا في نهاية القرن التاسع عشر. لذا فإن عملاً لرسّام أوروبي هو غالباً أحد الخيارات المتاحة والممكنة.

كما أن جامعي تلك اللوحات من الخليجيين خاصّة يبدون منجذبين إلى أسلوب الرسم الواقعي. وهناك عامل آخر ربّما يفسّر إقبالهم على شراء هذه النوعية من اللوحات يتمثّل في أنها، أي اللوحات، لا تصوّرهم ولا تتناول تفاصيل حياتهم.

فطوال القرن التاسع عشر ظلّت دول الخليج بشكل عام، منطقة مغلقة في وجوه الأوربيين، خلافاً لما كان عليه الحال في بقيّة بلدان المشرق العربي وتركيا التي كانت واقعة تحت الاستعمار الغربي.

الفكرة الشائعة هي أن الخليجيين قد يكونون أكثر تسامحاً مع مشاهد الشرق التي ابتكرها الرسّامون الأوروبيون وسجّلوها في أعمالهم. وبعض النقّاد يقولون إن الفنّ الاستشراقي يشبع رغبة كامنة لدى الكثير من مقتنيه الذين يتوقون لرؤية مناظر تصوّر جوانب من الحياة العربية وتحمل في نفس الوقت طابع العالمية.

ويقال إن جامعي هذه اللوحات من المسلمين يتجنّبون عادة إغراء مشاهد الحريم المغرية و(الفاسقة). وتبعاً لذلك فإن المنطق يملي عليهم أن يتوخوا الدقّة في اختيار نوعية اللوحات التي يريدون اقتناءها.

الغريب أنه لا يوجد رسّام أوروبي واحد ذكر أنه رأى الحريم عياناً أو في الحياة الواقعية، على الرغم من أن الكثيرين منهم كانت تنتابهم الأوهام والتخيّلات الكثيرة عنهنّ وعن أسلوب حياتهن.

في حوالي العام 1873 زار فريدريك ليتون بلاد الشام. وبعد عودته إلى انجلترا رسم لوحته المعروفة درس في الموسيقى التي تظهر فيها امرأة تعلّم الموسيقى لطفلتها. ويظهر أن الرسّام أعطى الشخصيّتين في اللوحة ملامح أوربّية خالصة بينما اختار آلة موسيقية شرقية، فارسية أو تركية على الأرجح.

جون فريدريك لويس زار اسطنبول

لوحة للرسام جان ليون جيروم الصلاة في المسجد

القاهرة بريشة جان ليون جيروم

لوحة للرسام جان ليون جيروم (بونابرت أمام أبو الهول) التي رسمها ما بين عامي 1867و1868

لوحة (طنجة) للرسام الفرنسي أوجين دولاكروا عام 1838

سوق في يافا للرسام الألماني غوستاف بيرنفيند

لوحة لعبة الشطرنج للرسام لودفيغ دويتش

لوحة بعد الصلاة للرسام رودولف إرنست

حوالي ذلك الوقت. وبعد عودته إلى لندن رسم لوحة بعنوان (الحريم) يصوّر فيها سيّدتين تجلسان في غرفة ذات ديكور شرقي وتراقبان قطّة منهمكة في ملاحقة شعرات من ريش طاووس. المنظر يمكن أن يكون تعبيراً عن الملل عندما يتحوّل

إلى لحظات من الجمال والتأمّل. ومن الواضح أن فريدريك لم يستطع إخفاء الملامح الغربية لزوجته التي اختارها كموديل للمرأة الجالسة.

الرسّام الفرنسي ايتيان دينيه جعل الجزائر بلده الثاني، وقد تعلّم فيها العربية وغمر نفسه بالثقافة الجزائرية ثمّ اعتنق الإسلام وحسن إسلامه وتسمى بناصر الدين دينيه وأدّى فريضة الحج وعاد في ما بعد ليموت في باريس كان هذا عام 1922 وبناء على وصيته تم نقل جثمانه إلى الجزائر حيث دفن فيها. وقد رسم دينيه مجموعة من اللوحات الجميلة التي تتناول جوانب من الحياة في الجزائر وبعضاً من عادات وتقاليد أهلها.

ويعد دينيه الأب الروحي للرسم في الجزائر. وقد عرف بدفاعه عن الحضارة العربية والإسلامية وألف أكثر من أربعة كتب عن الإسلام والعرب كما وقف ضد الاستعمار الفرنسي للجزائر.

ومؤخراً بيعت لوحة للرسّام جان ليون جيروم بعنوان (شركسية ترتدي الخمار) بأكثر من مليوني جنيه إسترليني. وقد رسمها الفنّان بعد رحلات عديدة له إلى تركيا، وهي المكان الذي يقال إن اللوحة ذهبت إليه بعد شرائها.

هناك قطاعات معيّنة من الناس في الشرق الأوسط تعتبر اللوحات الاستشراقية بمثابة السجلّ البصري الوحيد عن ثقافة القرن التاسع عشر. ويمكن أن يكون هذا أحد أسباب الاهتمام بتلك اللوحات في السوق الآن.

ومثل هذا النوع من اللوحات كان يثير الغضب في الشرق الأوسط ذي الطبيعة المحافظة، وكان الكثيرون يعتبرونه فنّاً مسيئاً.

لوحات ديلاكروا ورينوار وماتيس تصوّر هي أيضاً مشاهد مثيرة ومغرية وغريبة تتناول مظاهر الحياة في البلدان العربية. نساء مغطّيات بالكاد، سحرة أفاع ورجال معمّمون ينتشرون حول الخيام.

في أمريكا، لم يكن الاستشراق موضوعاً مرحّباً به كثيراً. كان الكثير من الأمريكيين ينظرون إليه باحتقار ويعتبرونه شيئاً من الماضي. كان الاستشراق برأيهم عاطفياً كثيراً وأوربياً أكثر من اللازم، بالإضافة إلى كونه غير صحيح من الناحية السياسية.

جامعو الأعمال الفنية من الأمريكيين لم يدخلوا سوق اللوحات الاستشراقية فعلياً حتى منتصف التسعينيات من القرن الماضي عندما ارتفعت الأسعار كثيراً لدرجة أن المستثمرين العرب فضّلوا الانسحاب.

ومنذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 أصبحت اللوحات الاستشراقية في أمريكا أقلّ جاذبية.

ومن أبرز رسّامي الشرق في القرنين التاسع عشر والعشرين مثل الفنّان الفرنسي جان ليون جيروم والألماني غوستاف بيرنفيند والأمريكي فريدريك آرثر بريدجمان والانجليزي جون فريدريك لويس .

بازار من خان الخليلي، القاهرة بريشة الرسام جان ليون جيروم

بازار في القاهرة للرسام جون فريدريك

لوحة الصلاة للرسّام الفرنسي ايتيان دينيه أو ناصر الدين دينيه

جان ليون جيروم
1904-1824

هو من أشهر الفنانين المستشرقين، درس اللاتينية والإغريقية والتاريخ. قام بأربع رحلات إلى الشرق الأوسط أولها لمصر عام 1856، درّس الرسم لمدة أربعين عاماً في مدرسة باريس للفنون الجميلة وكان الطلاب يأتوه من كافة أنحاء العالم ليتدربوا تحت إشرافه وكثير منهم تحولوا لرسامين مستشرقين، إذ كان يشجع تلاميذه على الترحال. رسم جيروم لوحات عديدة عن الشرق حوالي 250 عملاً من أصل حوالي 600 عمل له. وأكثر من رسم الحراس على البوابات المهيبة والحمامات وأسواق الجواري فصورة الشرق كانت ملتصقة في ذهنه بخدر النساء والحمام، لذلك ملأ لوحاته بهن وتكاثرت أكثر في آخر أيامه خاصة ابتداء من عام 1889 وكأن في ذلك عودة إلى الخيال وحنين إلى الرومانسية التي كانت تلفظ آخر أنفاسها.

كثير من لوحاته كانت عن الباشبازوقات (زعيم الباشبازوقات) و(باشبازوق)، والباشبازوقات هم جند مرتزقة للإمبراطورية العثمانية لا معاش لهم و إنما يعتاشون على السلب دون أن يُحاسبوا على ذلك، وكانت الإمبراطورية العثمانية تأتي بهم من كل مكان. وكذلك رسم الأرناؤوطات وهم جنود ألبان في الجيش العثماني.

جان ليون جيروم رسام ونحات فرنسي ولد عام 1824، وتتلمذ على يد الرسام الفرنسي بول دولاروش حيث رافقه إلى إيطاليا سنة 1844 فصور في بعض من لوحاته الجانب التفافي و التاريخي لإيطاليا. ثم سافر في سنة 1854 إلى تركيا ثم إلى مصر.

وقد التقى جان ليون جيروم بالخديوي إسماعيل، وعندما عاد إلى باريس أرسل له ألبوماً يتضمن صوراً فوتغرافيه لكل أعماله. وقد دعي جيروم مع عدد من الفنانين الفرنسيين إلى افتتاح قناة السويس عام 1869.

قام في العام 1868 برحله طويلة إلى مصر وآسيا الصغرى، وقد زار في القاهرة الجوامع الأثرية وصوّر العمارة الإسلامية.

دوّن جيروم جميع يوميات رحلاته وطبعت فيما بعد في كتاب، كما حصل على العديد من الجوائز و الميداليات .

في عام 1864 أصبح جيروم أستاذا للرسم في كلية الفنون الجميلة ، من أشهر لوحاته لوحة (بونابرت أمام أبو الهول) التي رسمها ما بين عامي 1867و1868.

توفي الفنان ليون جيروم في مرسمه بباريس عام 1904.